

صه أربنا المجهول - شاعر برني ولده بريوان

اقتراح القريح واقتراح الجريح

لأبي الحسن على الحمصي

[للأستاذ الزيات عزاء وسلوة]

للأديب السيد أحمد صقر

- ٢ -

الحمصي المجهول : هناك بن طيات القرون النابرة ، ثبت ضخم حافظ بكثير من نوابغ الأدياء ، وعباقرة الشعراء ذوى الجد العاثر والطلالع التكد ، الذين جار عليهم الزمان فتوى ذكرهم وطمر ترأهم . ولو عني الناس بأمر هؤلاء المحدودين ، وبمشوم من سراقدم ونشروا آثارهم ، لكان للأدب من ذلك ثروة طائلة من هؤلاء الشعراء المجهولين أبو الحسن على بن عبد الفنى الفهرى الحمصي القيروانى الضرير ، صاحب كتاب « اقتراح القريح واقتراح الجريح » . والحمصي - بضم الحاء وإسكان الصاد - نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها

ويشارك مع أبي الحسن هذا في لقبه شاعر معاصر آخر ، كانت بينه وبينه وشيجة نسب ، أعنى به ابن خالته الأستاذ « إبراهيم الحمصي » صاحب كتاب « زهر الآداب » المتوفى سنة ٤٥٣ من الهجرة (١٠٦١ م)

وقد اشتهر أمرها على كثير من الناس فحسبوا ذلك هذا ، ونسبوا آثار هذا لذلك ! وأرخوا لأحدهما بتاريخ الآخر ، ولكن الأمر لم يشته على الراسخين في العلم ، فوضعوا الحق في نصابه

اكتنت القموض حياة أبي الحسن الحمصي من كل ناحية ، فلنا نعرف نشأته ولا ثقافته ، وليس فيما بين أيدينا من المصادر ترجمة دقيقة شاملة نتمتع عليها في تاريخنا له ، وكل ما وجدناه تنف متشابهة ، وشذرات مقتضبة ، لا تجدى نفعا ؛ وقد أحببت أن أنقلها للقراء عليها تلقى شيئا - ولو ضئيلا -

من الضياء على حياة ذلك الشاعر المبقرى ، وترسم صورة - ولو شاحبة - لذلك الأديب المجهول

١ - ذكره ابن بسام في ذخيرته ، فقال : « كان بحر براعة ، ورأس صناعة ، وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه من القيروان ، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق ، مغمور الطريق ، فهادته ملوك طوائفها تهادى الرياض بالنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الدار في الأوس بالمقيم ؛ على أنه كان فيما بلغنى ضيق العطن ، مشهور اللسن ، يتلفت إلى الهجاء ، تلفت الظمآن إلى الماء ، ولكنه طسوى على غمره ، واحتمل بين زمانه وُبُئِدَ قطره ، ولما خلع ملوك الطوائف بأفقنا ، اشتملت عليه مدينة طنجة ، وقد ضاق ذرعه وتراجع طبعه ... » (١)

٢ - وذكره ابن بشكوال في الصلة فقال : « على بن عبد الفنى الفهرى القري الحمصي القيروانى يكنى أبا الحسن ، ذكره الحميدى وقال : شاعر أديب ، رخيخ الشعر ، دخل الأندلس وتلى ملوكها ، وشعره كثير ، وأدبه موفور ، وكان عالما بالقراءات وطرقها ، وأقرأ الناس القرآن بسبته وغيرها . أخبرنا عنه أبو القاسم بن صواب بقصيدته التى تظلمها في قراءة نافع ، وهى مائتا بيت وتسعة أبيات قال لقيه بمرسية سنة ٤٨١ هـ وتوفى بطنجة سنة ٤٨٨ هـ » (٢)

المواقفة لسنة (١٠٩٥) ميلادية

٣ - وذكره ابن خلكان في وفيات الأعيان ، فأورد قول ابن بسام ثم قال : « قلت وهذا أبو الحسن ابن خالة أبي اسحاق الحمصي صاحب زهر الآداب » ونقل كلام ابن بشكوال والحميدى ثم قال : « وله ديوان شعر . فن قصائده السائرة قصيدته التى أولها :

يليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده ؟
رقد السمار وأرقه أسف للبيت يردده
إنى أن قال : وحكى تاج العلاء أبو زيد المروف بالنسابة قال :
حدثني أبو أصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد بن محمد الحارث عن جده
زيد بن محمد قال : بعث المتمد بن عباد صاحب أشبيلية إلى أبي
العرب الزيدى خمائة دينار وأمره بأن يتجهز بها ويتوجه إليه

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٢

(٢) صفحة ٤٢٥ من المجلد الثانى طبع بمصر ١٨٨٣ م

٥ - وذكره الصلاح الصفدى في كتابه نكت المبيان وكل ما أتى به منقول عن ابن خلكان وابن بشكوال ، وزاد عليهما فذكر البيتين اللذين ذكرهما ابن الهاد . أقول له وقد حيا بكأس^(١)

٦ - وذكره ابن الجزرى في كتابه غاية النهاية فقال : « على ابن عبد الغنى أبو الحسن الفهرى القيروانى المصرى أستاذ ماهر ، أديب حاذق ، صاحب القصيدة الرائية فى قراءة نافع ، وناظم السؤال الدالى ملفزاً : سألتكم يا مقرئى الغرب كله وحمى فى سوات أجابه عنه الشاطي ومن بعده

قرأ على « عبد العزيز بن محمد » صاحب أبي سفيان ، وعلى « أبي علي بن حمدون الجلولى^(٢) » والشيخ « أبي بكر القصرى » وروى عنه « أبو القاسم بن الصواف » قصيدته ، وأقرأ الناس بسبته وغيرها . توفى بطنجة سنة ثمان وستين وأربعمائة . ثم نقل قول ابن خلكان فى وفيات الأعيان^(٣) ، وقول ابن الجزرى إن المصرى الأعمى توفى سنة ٤٦٨ هـ قول لم يشاركه فيه غيره من المؤرخين ، ولعله وهم أو تحريف من الناسخين

٧ - وذكره الهاد الكاتب فى كتاب خريدة القصر . وجريدة أهمل المصر ، فقال : المصرى الأعمى الرزىنى : هو أبو الحسن على بن عبد الغنى من الأندلس (!) صاحب تصنيفات واحسان فى النظم ، قال فى غلام اسمه هارون :
يا غزالاً فتنك اس بينيه فتونا
أنت هاروت ولكن صحفوا ناءك نونا
وقال يهجو أباً العرب الصقلى :

معجب كالنبي وهو لا يحسن شيا
إن هذا يجيوى أوتى العلم صيا

وقال :

كم من أخ قد كان عندي شهدة حتى بلوت المر من أخلاقه
كاللح يحسب سكرأ فى لونه ووجهه ويجول عند مذاقه

وكان بجزيرة صقلية ، وبث مثلها الى أبي الحسن المصرى وهو بالقيروان فكتب اليه أبو العرب :

لا تعجب لرأسى كيف شاب أسى

واعجب لأسود عيني كيف لم يشب

البحر للروم لا يجرى السفين به

إلا على غمر والسبر للعرب

وكتب اليه المصرى :

أمرتنى بركوب البحر أقطمه

غيرى - لك الخير - فأخصمه بذالدا

ما أنت نوح فتنجينى سفينته

ولا السيج أنا أمشى على الماء

ثم دخل الأندلس بعد ذلك وامتدح المعتد وغيره ، وتوفى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة بطنجة رحمه الله تعالى^(١)

٤ - وذكره ابن الهاد الحنبلى فى كتاب شذرات الذهب فى أخبار من ذهب عند كلامه على حوادث سنة ٤٨٨ هـ فقال : فيها أبو الحسن المصرى المقرئ الشاعر تزل سبته - على بن عبد الغنى الفهرى . كان مقرئاً محققاً ، وشاعراً مقلقاً ، مدح ملوكاً ووزراء ، وكان ضريباً . ثم نقل قول ابن بسام المتقدم وعقبه بقول ابن خلكان ، ثم قال وله أيضاً :

أقول له وقد حيا بكأس لها من مك ريقته ختام
أمن خديك تمصر ؟ قال كلا متى عصرت من الورد اللدام^(٢)

ولما كان بمدينة طنجة أرسل غلامه الى المعتد بن عباد صاحب أشبيلية - واسمها فى بلادهم حمص - فأبطأ عنه وبلغه أنه ما احتفل به فقال :

نبه الركب المهجوعا ولم الدهر الفجوعا

حمص الجنة قالت لعلامى لا رجوعا

رحم الله غلامى مات فى الجنة جوعا

وقد التزم فى هذه الأبيات لزوم مالا يلزم رحمه الله تعالى^(٣)

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٤٣

(٢) يذكرنى هذا البيت بقول المرحوم حافظ بك ابراهيم فى وصف

الصبيان :

خزة قيل إنهم عصروها من خدود الملاح فى يوم مرس

(٣) شذرات الذهب ج ٣ ص ٣٨٥

(١) انظر نكت المبيان فى نكت المبيان ص ٢١٣

(٢) هو محمد بن حمدون أبو الحسن الواسطى الحذاء ، وم فيه صاحب

التجريد نساه علياً ، ووهم فيه الهذلى نساه عبدالله . كان من أهل الثقة

والأتمان والنبط توفى سنة عشر وثلاثمائة أو فى التى بعدها ...

(٣) راجع غاية النهاية فى طبقات الفراء ج ١ ص ٥٥١

وقال يرثي المعتضد أبا المعتضد :

مات عباد ولكن بقي الفرع الكريم

فكان الميت حي غير أن الضاد ميم

وقال : أقول له وقد حيا الخ البيتين

وقال :

وشاعر من شعراء الزمان يفخر عندي بالمانى الحسان

وإنما أطيب أشعاره نصف خراسان والقيروان (١)

وقال :

إذا كان البياض لباس حزن باندلس فذاك من الصواب

وقال :

مما يفغضني في أرض أندلس سماع معتصم فيها ومعتضد

أسماء مملكة في غير موضعها

كلهر يحكي اتفاخاً صولة الأسد (١)

وقوله إذا كان البياض الخ ذكره المقرئ في فتح الطيب

وزاد عليه قوله :

ألم ترني لبيت بياض شبيبي لأنى قد حزنت على شبابي

وذكر أيضاً أن من عادة أهل الأندلس لبس البياض في الحزن

بخلاف أهل الشرق . وذكر لبعضهم أبياتاً في ذلك (٢)

ألا يا أهل أندلس فظنتم بلطفكم إلى أمر عجيب

لبستم في ما تمكم بياضاً فحتم منه في زى غريب

صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب

٨ - وذكره الراكشي عرضاً عند كلامه على نزول المعتضد

مدينة طنجة قال : « فأقام بها أياماً ولقيه الحصرى الشاعر جفري

معه على سوء عادته من قبج الكدبية ، وإفراط الألف ، ورفع

إليه أشعاراً قديمة كان مدحه بها ، وأضاف إلى ذلك قصيدة

استجدها عند وصوله إليه ، ولم يكن عند المعتضد في ذلك اليوم مما

زود به - فيما بلنتي - أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً ، فطبع

عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها ، سقطت من

حفظي ، ووجه بها إليه فلم يجاوبه عن القطعة على سهولة الشعر

على خاطره ، وحنقه عليه . وكان هذا للمرجل - أعنى الحصرى

الأعمى - أسرع الناس في الشعر خاطراً إلا أنه كان قليل الجيد

منه ، فحركه المعتضد على الله على الجواب بقطعة أولها :

قل لن قد جمع العا م وما أحصى صوابه

كان في الصرة شعر فتنظرنا جوابه

قد أمبتناك فهلا جلب الشعر ثوابه

ولما اتصل بزعانفة الشعراء وملحق أهل الكدبية ما صنع

المعتضد - رحمه الله - مع الحصرى تعرضوا له بكل طريق ،

وقصدوه من كل فج عميق ، فقال في ذلك رحمه الله :

شعراء طنجة كلهم والغرب ذهبوا من الأعراب أبدمذهب

سألوا المسير من الأسير وإنه بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب

لولا الحياء وعزة الخبية طى الحشا ساواهم في الطلب (١)

هذه هي كل التفت والشذرات التي عثرت عليها في كتب

التراجم لذلك العهد السحيق . وكل هذه التراجم - إن صحت

تسميتها بذلك - لا تكشف لنا عن حياة الشاعر ، ولا تبين

مقدار قوة شاعريته أو ضعفها ، ولا توضح أثره في الأدب ، ولا

تتناول أوجهه بالنقد والتحليل . والذي يستوفيني منها بصفة خاصة

قول الراكشي : « كان هذا الرجل أسرع الناس خاطراً في الشعر »

وقول ابن بشكوال تقياً عن الحميدى « إن شعره كثير ، وأدبه

موقور » ، فأين ذلك الأدب الموقور والشعر الكثير الذي

واتاه به طبعه الدافق في يسر وسهولة ؟ أين قصائده في الهجاء

الذي « كان يتلفت إليه تلفت الظمان إلى الماء ؟ » أين فلانده التي

قلد بها ملوك الطوائف حتى تهادته تهادى الرياض بالنسيم ، وتنافسوا

فيه تنافس الديار في الأوس بالقيم ؟ أين خرائده في الوزراء الذين

أغدقوا عليه النعم ؟ أين أين ذلك الشعر الرخيم ؟ لقد غمره

طوفان الفناء فيما غمر ، ولم يبق له جرس ولا أثر ، والسؤال عن

ذلك هو الحصرى نفسه فهو الذي أهمل ولم يحسب لذلك الطوفان

حساباً ، ولم يدون من شعره غير كتاب اقتراح القريح واجترح

الجريح . ولدينا مجموعة صغيرة من شعره في الغزل والنسيب اسمها

« معشرات الحصرى » سنتكلم عنها بعد أن نروي لك كثيراً

من شعره في اقتراح القريح . . .

أمر صف

(١) أنظر الحريدة ص ٢٢ من النسخة المطبوعة المنقولة بدار الكتب

السكرية تحت رقم ٢٥٥ : أدب

(٢) فتح الطيب ج ٢ ص ٩٠٦ طبع بولاق .